شَرْحُ كِتابِ الرِّقاق

مِن صَحيحِ البُخارِي

أ. أناهيد السميري

اللقاء الثاني

ألقي في ٢ رمضان ١٤٣٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

- الكمال لله عزّ وجلّ، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله. .

والله الموفق لما يحب ويرضى.

ما تم دراسته من أبواب:

٣) بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ.

٤) بَاب فِي الْأَمَلِ وَطُولِهِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ...}

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله عزّ وجل حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا أن جمع لنا أسباب زيادة الإيمان بهذا المكان العظيم فيسّر لنا أسباب العمل الصالح ويسّر لنا أيضًا أسباب العلم النافع، أسأل الله عز وجل أن يجعله علمًا نافعًا.

هذا هو لقاؤنا الثاني الذي نلتقي فيه لدراسة أحاديث من صحيح البخاري، وهذه الأحاديث من كتاب الرقاق.

وقد اتفقنا أن كلمة الرقاق جمع رقة وهو ما ينتظر في قلب المؤمن من آثار معرفة الله عز وجل ومعرفة حقيقة الحياة، فالحديث الذي يريده البخاري في هذه الأبواب إنما هي أحاديث تدور حول أمور تسبب الرقة في قلوب الخلق، وكما هو معلوم فقه البخاري في أسماء أبوابه، فتجد الجملة النبوية عنوانًا للباب أو تجد أحيانًا كلام البخاري عنوانًا للباب لكن نفس الكلام هذا الذي تسمعه في مطلع الباب تجد من ورائه فائدة في رقة القلب ثم يأتي بالأحاديث تؤيد هذا.

أول باب بدأ به الكتاب "باب الصحة والفراغ ولا عيش إلا عيش الآخرة" والباب يدور حول الحديث المشهور: "نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ" وقصد بهذا الباب أن مما يرقق القلب ويوصل الإنسان إلى غايته أن يعرف حقيقة ما هو موجود له فأنت لما يُنعم عليك بالصحة التي هي الأداة التي تصل بها إلى كل عمل، ويُنعم عليك أيضًا بالفراغ يعني لا تجد مشقة في تحصيل أمور حياتك الدنيوية الأساسية وطبعًا هذا الفراغ له أسبابه الأمن والأمان والرفاهية، المفروض لما يجتمع عليك أن تجعلهما سبب للانتفاع من حياتك، ثم إذا عرفت ما هي الحياة لن تستكثر في الدنيا، لأنه قال باب الصحة والفراغ ولا عيش إلا عيش الآخرة، المقصود لما تأتي الصحة والفراغ لا تبذل جهدك أن تستكثر من الدنيا إنما الصحة والفراغ من أجل أن تجتهد في عيش الآخرة.

ثم أتينا إلى **الباب الثاني** فكان "باب مثل الدنيا في الآخرة" وأورد في اسم الباب قول الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وهذه آية سورة الحديد التي فيها تصوير الحياة بخمسة أمور:

١. لعب
٢. ولهو
٣. وزينة
٤. وتفآخر
٥. وتكاثر

فهذه حالة الناس:

- يلعبون بأبدانهم.
- يلهون بقلوبهم.
- يبذلون جهودهم أن يتزينوا لغيرهم. يعني يزينون ظواهرهم ولا يزينون بواطنهم لله.

- ثم تجدهم يتفآخرون
- ويتكاثرون

فكثير من الأمور الموجودة في حياة الخلق ليس هم بحاجة أساسيّة لها إنما هي فقط من باب إما التفاخر وإما التكاثر هذا جزء من الحياة وجزء آخر تجده كله زينة، مجرد زينة تذهب وينطفئ طعمها لمجرد الاستمتاع بها، وفي الأول وصف الله عز وجل أن الحياة لعب بالأبدان ولهو بالقلوب ثم أتى حديث النبي صلى الله عليه وسلم : "مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا".

والمقصود أن موضع السوط على قلته يعني على صغر مساحته في الجنة خير من الدنيا كلها وما فيها، فهذا الذي يسعى إليه ويقضي فيه ساعات العمر وما وفق الله عز وجل العبد له من أسباب زيادة الإيمان فليغتنم هذه الأسباب من أجل مكان موضع سوط فيه خير من الدنيا وما عليها.

هذه من الأمور التي ترقق القلب معرفة ما نحن فيه ومعرفة ما نحن مقبلين عليه، فهذا يجعل القلب في حالة من الزهد في الدنيا التي يعيشها، والزهد ليس معناه نرك ما تحتاجه لكن عدم انشغال القلب، الذي تحتاجه الشريعة تقول لك قم به من أجل أن تعيش لكن أي زيادات عن ذلك لا تشغل قلبك بها، إن أتت فهي من عند الله، وإن لم تأتي فالله عزّ وجل حفظ قلبك من التعلق بها.

الباب الثالث:

بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ"

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو المُنْذِرِ الطُّفَاوِيُّ عَنْ سُلَيْمَانَ الْأَعْمَشِ قَالَ حَدَّثَنِي مُجَاهِدٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)) وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: "إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ".

البخاري عنون للباب بجزء من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ"، وسيتبين ما أثرها على حياتي أن أكون كأني غريب أو عابر سبيل، ومن أثر وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر "وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ" ألفاظ الحديث تامة الوضوح المقصود منه كله قصر الأمل، ومعلوم أن من قصر أمله، قلّ همّه وتنور قلبه.

من قصر أمله يستفيد فائدتين:

الفائدة الأولى: سيقلّ همّه في الدنيا.

الفائدة الثانية: أن يبقى قلبه مستعدًا فارغًا ليتنور بمفاهيم القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ومفاهيم الدين.

ويصبح عنده من الزمن ما يستطيع به أن يتفكّر ومن الزمن ما يستطيع فيه أن يرى تربية الله عز وجل له ويصبح قلة الهمّ في القلب سبب لانشراح صدر الإنسان لقبول أقدار الله.

لكن كثرة الهمّ تجعل الإنسان لما تجري عليه الأقدار وهو قد كان مهمومًا يريد هذه الصورة ويريد هذا الأمر ويريد أن تكون هذه القضية بهذه الطريقة كثرة الهموم تجعل الإنسان في ضيق صدر من قبول أقدار الله عز وجل.

إذن ملخّص معنى كلام النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر و كلام ابن عمر: إذا قصر أمل الإنسان خرج بأمرين أساسيين وهما:

الأول قلة همّه. والثاني نور في قلبه.

ما العلاقة؟ العلاقة واضحة؛ أن الإنسان إذا قصر أمله وعرف أنه غدًا سيكون أو لا يكون، ستقلّ الهموم والاهتمامات بالدنيا، ثم سيكون في فسحة في قلبه لقبول كل شيء يقدر عليه ويقضيه الله عز وجل والقيام بالعمل.

هل قصر الأمل معناه انقطاع الأمل؟ لا، ليس هذا هو المقصود؛ لأن الأمل بنفسه طبع طبعه الله عز وجل في قلوب الناس، لكن الله عز وجل جعل هناك آمال خير ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1] أولًا وصف ثوابها والأمر الثاني وصف أنها خير أملا.

◎ "خير ثوابًا" من جهة الثواب.

◎ "خير أملا" يعني أنت مطبوع على الآمال، مطبوع على أن تكون متأمل؛ لكن عندك خيارين في آمالك:

◄ الخيار الأول: إما تدور آمالك حول الدنيا وما فيها.

◄ الخيار الآخر إما أن تكون آمالك حول ما عند الله عز وجل ولذلك قال الله عز وجل ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ يعني خير ما تتأمل وترجو وتشتاق نفسك إليه.

نقرأ شرح للحديث من كلام ابن بطال:

قال أبو الزناد: معنى هذا الحديث الحض على قلة المخالطة وقلة الاقتناء والزهد في الدنيا.

اتفقنا أننا نقصر من آمالنا ونقلل من المخالطة وقلة الاقتناء والزهد في الدنيا.

ما وجه ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ"؟ الغريب ما صفته مع الناس؟ قليل الانبساط إلى الناس لأنه غريب، غالبًا ما مستوحش من الناس؛ لأنه غريب فلا يعرف الناس فقليل ما يمرّ على أشخاص يعرفهم فيأنس بهم، ولا يستكثر بخلطته بالناس لأنه غريب فعلاقته بالناس محدودة على قدر حاجاته فقط، لا يزيد علاقته بهم ويصبح أنيسًا بهم؛ لأنه غريب لا يعرفهم ولا يعرفوه.

وسيأتي أنها كأنها درجات (غريب أو عابر سبيل) كأن الإنسان يترقى، من الغريب ممكن يكون علاقة بسيطة إلى عابر سبيل ما له إلا حاجته الأساسية فقط، سيعبرهم، يمرّ عليهم ويعبرهم ويتركهم ويمشي.

[1] سورة الكهف ٤٦

فالمقصود هنا قلة الأمل في الدنيا، يقلل أمله كما يمرّ الغريب أو عابر السبيل لما يمرّ بمكان.

وهناك أمر آخر: العلاقة بيننا وبين الناس، كون الإنسان يعيش في الدنيا ولا يجد في قلبه أنس إلا بالناس هذا معناه أن هناك خلل في قلبه من جهة تصوره حقيقة الدنيا والرحلة فيها، بل نحن نجد أنفسنا نستأنس بالناس ونستوحش حتى من نفوسنا، وهناك مثل دائمًا نضربه أنه لو كنا في غرفة انتظار طبيب مثلًا وليس معي جهاز جوالي أو أي شيء فقط أنا وحدي وليس معي ما يؤنسني أشعر بالملل الشديد! وهي فرصة أن أبقى مع نفسي أذكر ربي وأراجع نفسي، كثير من الناس يشعرون بذلك ويشتكون منه ويطلبون أي أحد أن يكون أنيسًا لهم، فهذه الصورة معناها أن الإنسان أصبح حتى مستوحش من نفسه ولا يريد الانفراد بها ويُحبّ الخلطة التي تذهب بمقاصد قلبه.

في النهاية الإنسان يصبح كل شيء يقصده بقلبه أن يرى الناس، أن يقول الناس، أن يرضى الناس، هذه نتيجة لكثرة الانبساط إلى الناس يصبح الناس هم المقياس الوحيد عند الإنسان لرضاه عن نفسه أو لرضاه عن إنجازه لعمله.

في مقابل أن الغريب أو عابر السبيل لا يقدّر للناس ثمن إلا على قدر الأمور الأساسية، فعلاقة الغريب أو عابر السبيل هذا لا يأتي بالفحشاء من القول أو بالفحشاء من العمل ويقول أنا غريب أو عابر سبيل بالعكس، سيكون مؤدب ومتحفظ ولا يكثر الانبساط إليهم وفي نفس الوقت لا يهمه رأيهم فيه، إنما هو غريب عنهم سيمرّ عليهم ولا يبقى مهم جدًا عنده ما مشاعرهم تجاهه وكم هم عنه راضيين.

معنى ذلك أن الغريب أو عابر السبيل شأنه شأن الذي لا ينبسط إلى الخلق ولا يستكثر منهم بل لا يكاد يمرّ بمن يعرفه فيأنس به ويستكثر بخلطته فهو ذليل في نفسه خائف، هذه المشاعر التي يجدها في نفسه أنه خائف، يعني لا يجد علاقته بالناس إلا أن يريد أن يأخذ حاجته ويكتفي شرهم أيضًا، يرى أنه غريب لن يكون له أحد يسنده فيريد اكتفاء الشر.

في مقابل أن أهل البلد الذين ليسوا غرباء تجد أنهم يستأنسون ويستأنسون فتقضى أعمارهم في استئناس بعضهم ببعض وفي تزين بعضهم لبعض وفي التكاثر بعضهم مع بعض وفي التفاخر بعضهم مع بعض، فنعود للمثل الذي ضربه الله عز وجل في الدنيا وأن اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر إنما هي بسبب أن الناس جعلوا مقاييس الرضا بعضهم لبعض، يعني لا يفكّر الإنسان هو من عند الله لكن يبقى مُلّح عليه تفكيره هو من عند الخلق ومن ثمّ يكون الأنس بالناس وليس الأنس بالله عز وجل.

ولذا لما النبي صلى الله عليه وسلم أوصى ابن عمر: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ" فالغريب أو عابر سبيل أصل المفهوم قلة الأمل في الدنيا، واتفقنا أننا من طباعنا أننا نتأمل لكن هذا الذي نملكه من قوّة في الأمل يقال لك وجهه للآمال التي عند الله عز وجل، فلو خابت آمالك في الدنيا لا يكن حزنك شديد لأنه مهما كانت آمال الدنيا وخابت وقبل الإنسان ورضي عن ربه مهما خابت آمالك الرضا عن الله يسبب لك الأجور العظيمة فتكون الآمال التي تأملتها هنا وخيبتها سبب لقربك من الله.

إذًا الآمال في الدنيا ليست ممنوعة إنما الممنوع أن تأخذ لُبّك فتذهب بلُبّك عن الله أو تتأمل فيخيب أملك فتسخط على الله، هذه مشكلة الآمال، لكن إن كنت تتأمل وترجو شيء من الدنيا ليس فيه طمع ثم لم توفق لهذا الشيء في الدنيا ورضيت عن الله وما قسم لك وانتظرت العوض من عند الله عز وجل، ستكون هذه الآمال سبب للقربة من الله عز وجل.

يقول:

وكذلك عابر السبيل لا ينفذ في سفره إلا بقوته عليه وخفته من الأثقال غير متشبث بما يمنعه من قطع سفره معه زاد وراحله يبلغانه إلى بغيته من قصده.

فعابر السبيل صورة تقرب لك علاقتك بالدنيا وبالناس، (الغريب) تقرب صورتك من الناس، يعني كن غريبًا عن الناس فلا تجعل أنسك كله بهم، وعابر السبيل هذا فهم بالضبط صورة الحياة وكما نتدارس في سورة النحل لما الله عز وجل تكلم عن السفر الحسي وعلى منته على الخلق بما خلق لهم من أنعام وبما خلق لهم من حيوانات يركبوها ليقطعوا بها سفرهم وهذا من رأفته ورحمته بخلقه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢] وقبلها أخبر الله عز وجل عن نعمه حول هذا السفر والانقطاع ثم بعدها مباشرة قال: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٣] المقصود أنكم إذا كنتم تفكّرون في السفر الحسي وتركبون هذه الأدوات من أجل أن تسافروا، فاعلموا أن على الله قصد السبيل بمعنى على الله أن يوصلكم في سفركم إليه وعلى أن يجعلكم في الصراط المستقيم ويوصلكم إليه، ومن الطرق التي ممكن تسيروها جائر يعني مائل تبعدكم عن طريقه سبحانه وتعالى.

معنى هذا تقرير أن الرحلة إلى الله عبارة عن سفر، وإذا آمنت أنك مسافر إلى الله ستكون في الدنيا عابر سبيل، يعني راكب تمر على الحياة وتمر على الناس وتمر على الأحداث كالمسافر الذي لا تشغله هذه الأحداث وهذه الحياة عن مقصوده في السفر.

أنت مسافر إلى مكة، أرض يحبها الله وقلبك معلق بها لأن الله يحبها، إذًا أنت مسافر لله، ونفترض أنك مسافر في طريق بر وفي كل مدينة تلقاها من بلدك إلى هنا هناك أحداث وأماكن مثيرة وهناك أشخاص ممكن أن تتصل بهم لكن لما تكون عازم على أن تصل في وقت معين وبصورة معينة ستقطع كل آمالك في الاتصال بهؤلاء أو مشاركة هؤلاء أو مشاركة البلاد فيما هي فيه وستقطع من قلبك الطمع في أن تدخل سوق كل بلد دخلتها أو تحدّث كل شخص تعرفه في هذه البلاد أو تشاركهم همومهم المتصلة ببلادهم، لن تفعل هذا الفعل ستمر فقط بالطريق الذي يوصلك وتتخفف من الوقوف عند الخلق.

هذا معناه أن عابر السبيل وصف أعلى من وصف الغريب، الغريب هذا ممكن يكون جالس مع الناس لكنه غريب عنهم وسيأتي وقت يسافر عنهم، لكن عابر السبيل أصلًا مارًا بهم، قلبه معلق بمقصده الذي هو نهاية سفره، والذي يمر به بدنه يجعله يتخفف منه ويسرع من أجل أن يصل إلى مقصوده، وبه أيضًا صفة مهمة أنه لما يسافر عابر السبيل سيجعل قواه كلها في تفكيره في السفر وسيتخفف من الأثقال هذه ميزة مهمة جدًا أن يتخفف من الأثقال، بمعنى أنه لا يأتي لكل مكان ويتزود منه ويتزود منه لأن هذا سيصبح على ظهره إنما يتخفف من الأثقال من أجل أن لا تكون هذه الأثقال مانعة له أو قاطعة من سفره، وكل الذي يفكر فيه زاد وراحلة يبلغانه إلى مقصوده.

هذا الكلام يدل على أمر مهم على إيثار الزهد في الدنيا وأخذ البلغة منها والكفاف، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره فكذلك لا يحتاج المؤمن لأكثر مما يبلغه المحل.

---

[٢] سورة النحل ٨

[٣] سورة النحل ٩

فالمقصود أن المؤمن كالمسافر كعابر السبيل الذي يحتاجه فقط من أجل أن يصل به هو الذي يأخذه فأي شيء زائد سيرى أنه ثقل عليه.

وهذا الأمر الحقيقة يشعر به بوضوح الحجاج لما يحجون ويريدون أن ينتقلوا من مكان إلى مكان ولن يعودوا إلى المكان الأول، مثلًا في رحلة الحج الناس يأتون إلى مكة وبعد دخولهم إلى مكة ينتقلون من سكنهم في مكة إلى منى ثم ينتقلون إلى عرفة ثم ينتقلون إلى مزدلفة، ففي الأحوال الطبيعية أنهم سينتقلون ومعهم كل أغراضهم لأنهم غير مستقرين وغير مستوطنين فإذا زادوا على أنفسهم الأغراض ثقل عليهم السير فيبغضون أغراضهم، وكثيرًا ما ترى في الحج أن الناس يتخلصون من متاعهم يتركونها، أي شيء يجدون أنه ليس ضروريًا يتركوه، فهذا لو تصورناه فالحج كأنه يمثل الدنيا.

وكلمة الحج معناها القصد، والحج الشرعي القصد إلى معظّم ولذلك هناك في آية سورة النحل: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يعني الله هو الذي يوصلكم إلى مقاصدكم.

فالمقصود لو شعرنا بهذا سنشعر أن كل شيء زائد عن حاجتنا الأساسية سنتحمله فوق ظهورنا، وهذه الجملة النبوية: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ" تحتاج إلى كثير من التفكير والتأمل وعدم الاغترار خصوصًا لما تكثر تجاربنا وتصبح لنا معرفة بالدنيا وحقيقتها، ونعرف أن الدنيا مجرد زينة، وأن كثير من الأشياء حرصنا عليها ثم ذهبت وأصبحت لا قيمة لها وأتى الأحسن منها أو أصبح الناس لا يميلون لمثل هذه الأشياء، فتشعر أنك لما استكثرت منها واشتريت أشياء كثيرة منها كما في بتعبيرنا ذهبت موضتها فكأنك خسرت وبقي كل ما تراها حسرة في نفسك، فالمقصود التفكير.

ونحن نتفق مرارًا وتكرارًا أن علّتنا الحقيقية هي عدم صحة التفكير، لأننا لما نتخذ قرارات أو نخطط لأنفسنا نخطط ونحن ناسين أمر مهم أن هذه ليست حياتنا مثل هذا الحديث بالضبط: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ" هذا الغريب أو عابر سبيل يعني هذا بلدك؟ هذا مستوطنك؟ لا، فالذي يفهم هذا الأمر لا يزيد شأنه في الدنيا لأنه يفهم الآن أنه مجرد عابر سبيل فهذه ليست وطنه، هو عابر سبيل يعني مسافر أو غريب إلى أين سيذهب؟ سيذهب إلى وطنه.

فإذا فهمنا هذا سنفهم أيضًا آية سورة الفجر لما يتحسر المتحسر على نفسه – نعوذ بالله من الحسرة – ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ تبين له أنه ليست هنا الحياة إنما الحياة هناك، فإذا كانت هناك فأنت هنا في الدنيا ماذا تفعل؟ تقطع الليالي والأيام لتصل إلى الله عزّ وجل لتصل إلى دارك التي قد قدمت لها وبنيتها وغرزت فيها وقد وصف لك كل شيء تفعله من أجل أن تعمر تلك الدار، ويقال لك أنت في طريقك هنا في السفر فعمّر تلك الدار فسبح وكبر وهلل واذكر الله وانشغل به وكل هذا ستجده في الدار التي بنيتها لنفسك عند رب العالمين.

نسأل الله عز وجل أن نلحق بتلك الدار ونحن في خير حال اللهم آمين.

في نفس الباب أورد البخاري قول ابن عمر: "إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ" ليتبين لنا أن ابن عمر قد تأثّر بوصية النبي صلى الله عليه وسلم، فلمّا وصّاه النبي صلى الله عليه وسلم "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ" بمعنى أنك مجرد مارّ تمرّ على الدنيا والسفر الحسي يقطع المسافات بالأميال والكيلومترات والسفر المعنوي إلى ربنا يقطع بالليال والأيام، فأثر فهم ابن عمر لكلام النبي صلى الله عليه

وسلم جعله يقول "إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ"، يعني أنت مسافر تقطع حياتك بالأوقات؛ فالأوقات المساء والصباح فيقال له قد تعود إلى دارك في أي لحظة فإذا أمسيت لا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، لماذا؟ لأن هناك موعد لعودتك لدارك، فهذا حضّ منه في أن يجعل الموت نصب عينيه.

وهنا نناقش مسألة مهمة جدًا دائمًا تتكرر عند الناس وهو ما يوسوس به الشيطان للناس من تخويفهم من الموت، ويجعل دائمًا ذكرى الموت في نفوس الناس مشؤومة لدرجة أن الناس يحاول بعضهم بعضًا أن يسكّن ويسكت ذكرى الموت، فلمّا نفكّر هذا التفكير الشيطاني والسبب أنك مرتحل مسافر ولابد من موعد ينتهي فيه السفر وهذا السفر حسنه ووصولك إلى الدار وأنت في خير حال إنما يعتمد على بقاء ذكرى أنك ستنتقل، فأنت لو كنت ماشيًا مسافرًا ونسيت نفسك أنك مسافر ودخلت وجلست وبت ونمت ونسيت هذا الأمر هذا يضرك أو لا يضرك؟ يضرك.

إذًن تحتاج دائمًا أن تبقى ذاكرًا أنك مسافر، والمسافر يبذل جهده أن يحصِّل في سفره، لأنه سافر ودخل هذه المشاق كلها من أجل أنه وعد لو أحسن في سفره سيجد ما أحسن فيه في آخر السفر، فإذا فكّر الإنسان بهذه الطريقة يبقى يفكّر في ليله ونهاره يحسن، يعرف أن الليل والنهار كالخزانة يخزن فيه، فلما يتذكّر نهاية سفره يزيد حسن تخزينه في الليالي والأيام لكن الشيطان يكره لك هذه الذكرى النافعة فيذكرك بالموت تذكيرًا يخوفك منه، ولذلك نجد أيضًا حديثًا في باب الرقاق :"مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ"؛ فقالت عائشة رضي الله عنها: "يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ" فَقَالَ لَيْسَ كَذَلِكِ" ووصف لها.

المقصود أن الإنسان لما يكون مستعدًا وذاكرًا ومستبشرًا ومحبًّا للقاء الله عزّ وجل ويخاف أن يخطئ فيستغفر وكل تفكيره أنه سيلقى الله ويبذل جهوده أن يحسن، فلما تأتيه لحظة الموت وقد استطاع أن يجاهد الشيطان طوال حياته من وسواس الموت لما تأتي هذه اللحظة يستبشر! لما تأتيه الملائكة يستبشر أنه انتهت الرحلة وأنه سينتقل إلى ربه وأنه هناك سيكون خيرًا مما هو عليه، ولذلك الملائكة تقول له كلمتان: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ يعني لا تخافوا مما ستستقبلون، سيكون خير كثير لا شيء الدنيا فيه، ولا ما تركتم وراءكم لأن الناس يتركون وراءهم أبناءً يقولون لهم لا تحزنوا على تركهم وفراقهم فهم في حفظ الله عز وجل.

أنت أهم شيء فكّر الآن في نفسك، فالشيطان يشعرنا أن ذكرى الموت تكدر علينا الحياة، والصحيح أن ذكر الموت تحسن لنا المسالك، لما نتذكر ونفهم أن الإنسان لما يقبض قد تأتيه ملائكة الرحمة التي على مدّ البصر ويشهد أن لا إله إلا الله وتكتب له هذه الشهادة ويقبض روحه قبضًا يسيرًا كنسمة كل هذه الأشياء الجميلة لا يتحققها الإنسان إلا إذا كان في سيره ذاكرًا أنه سيموت ويعمل لهذه اللحظة وذاكرًا أن في القبر نور وضياء وأن في القبر أناس ينعمون نعيمًا لو جمع نعيم أهل الدنيا ما كان شيء في نعيمهم، وأن كل شخص في هذه الحياة البرزخية لما يكون من أهل النعيم يطلع على مكانه من نعيمه في الجنة وتأتيه من هذا المكان ريح فيها من الجمال والبهاء ما فيها، فهذا كله لما تتذكره ماذا سيحصل في نفسك؟ ستتحمس بالقيام للأعمال الصالحة، لكنه يبغضنا في هذا ويخوفنا ويجعل ذكرى الموت عندنا مجرد وسواس يخوفنا من أجل أن ينقطع عن قلوبنا الحماس للعمل الصالح، لأن العمل الصالح تفعله كلما تذكرت الله ولقاء الله ورضا الله فتصبح من المستبشرين بالموت "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ".

- إذن حضّ منه على أن يجعل الموت نصب عينيه فيستعدّ له بالعمل الصالح
- وحضّ له على تقصير الأمل وترك الميل إلى غرور الدنيا.

وأحسن الأعمال التي يقوم بها العبد لما نتذكر الموت هي التوبة، فليس هناك عمل مثل التوبة يحل كثير من الأزمات التي نعيشها في نفوسنا، فأنت تقول أنا لم أعمل صالحًا ولم أحسن في حياتي وها أنا سأستقبل الموت نقول الحمدلله الله فتح لك بابًا من أوسع الأبواب التي تدل على رحمته ورأفته بالخلق.

ما بك؟! قصرت في حياتك؟ قصرت في صلاتك؟ قصرت في صيامك؟ أجرمت؟ وقعت في الكبائر؟!

كل ما تريد أن تقوله اعلم أن التوبة تجبّ ما قبلها والحمدلله رب العالمين، وما جعل الله للشيطان على المؤمنين سبيلًا لكن المؤمنين هم من يجعلوا للشيطان على أنفسهم سبيلًا لأنهم لا يتذكرون الحقائق.

فاترك عنك الشيطان، وتذكّر أنك ستلقى الله وأنك في القبر ستكون وحدك وأن هناك ظلمة وأن نورها بالقرآن، فأقرأ القرآن وافهم كلام الله، تذكر أن الصلاة نور والصدقة برهان يعني تثبتك، لأنها برهان على إيمانك فتثبتك وقت السؤال، فتنفق وأنت تنتظر أن تثبت وقت السؤال وهكذا.

فكّر تفكير عملي ما هي الأحداث التي ستكون بعد الموت، كيف الناس يفعلون هنا من أجل أن يكونوا من أهل السعادة بعد الموت والحمد لله رب العالمين، ليس هناك شيء غامض ولا أنت أمام مجهول لا تعرف كيف تخرج من الأزمة والظلمة والخوف! بل تعرف كيف تخرج لكن بقي أن تجمع قلبك وأن تفعل، وكلما تذكرت تستغفر وعد وأحسن ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

وأنت مقبل على كريم رحيم شكور يعطي على العمل القليل الأجر الكثير، فلا تجعل الشيطان يقنّطك وتظن أنك ستذهب إلى رب يعاقبك وأنت لم تفعل شيئًا أو يذهب بحسناتك وأنت قد أحسنت، لا تظن بربك هذا !

ولذلك لما تقرأ سورة الكهف ستعلم أن كتابك {لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا}[٤] وسنجد ما عملنا حاضرًا وإذا كان ما عملنا هو العمل الصالح والتوبة المتكررة والاستغفار فالحمد لله رب العالمين فالتوبة تجبّ ما قبلها والحمد لله رب العالمين، ولذلك ما يحمد الله عز وجل عليه شرعه ودينه وكمال صفاته وتوحيده هذا كله يحمد سبحانه وتعالى عليه ويغاظ به الشيطان، لابد أن نغيظ الشيطان، نغيظه بحسن ظننا بالرحمن الذي يؤدي إلى الأعمال، نفكّر في الآخرة، نفكّر في لقاء الله.

فاعلم أنك غريب أو عابر سبيل فإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وحسِّن مساءك بالتوبة والأعمال الصالحة، أصبحت لا تنتظر المساء، حسّنه بالتوبة والأعمال الصالحة.

ولذا من لطائف المسألة أن نتذكر أن سيد الاستغفار وهي من الصيغ العظيمة التي بها يغفر للعبد وفيها إعلان توبة للعبد، سيد الاستغفار إذا قاله العبد حين يصبح ومات دخل الجنة، يعني ما بين من قاله صادق من قلبه ما بينه وبين الجنة إلا أن يموت، وإذا قالها في المساء ثم مات دخل الجنة، وهذا دليل على أن التوبة والاستغفار من أعظم الأعمال التي تنفع العبد وتيسّر عليه رحلته إلى ربه.

---

[٤] سورة الكهف ٤٩

نسأل الله عز وجل أن ييسر لنا الرحلة وأن نكون ممن أرضى الرحمن وأغاظ الشيطان اللهم آمين.

أيضًا قال ابن عمر رضي الله عنه متأثرًا بوصية النبي صلى الله عليه وسلم: "وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ" لها دلالتان:

١. هذا حض على اغتنام أيام الصحة فيمهد فيها لنفسه خوفًا من حلول مرضه بحيث أنه يمنع عن العمل.

٢. أنك وقت ما تكون صحيحًا اشتغل بالأعمال الصالحة فلمّا تمرض يكتب لك أعمالك الصالحة.

من يكون في حسرة؟ من يكون وهو صحيح فرط فيأتي مرضه فلا يكتب له في مرضه عمله الصالح الذي كان يعمله سابقًا لأنه لم يكن يعمل!

وكذلك قوله: "وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوتِكَ" تنبيه على اغتنام أيام حياته وأن لا يمرّ عمره في باطل وسهو وغفلة لأن من مات فقد انقطع عمله وفات أمله وحضره على تفريطه ندمه!

فما أجمع هذا الحديث على معاني الخير وأشرفه.

إذن "خذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك" إشارة إلى ما بدأنا به في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ" كثير من الناس لهم صحة وفراغ قد غبنوا فيها لأنهم لم ينتفعوا بها كما يحب الله عز وجل ويرضى.

بهذا انتهينا من الباب الثالث وننتقل إلى الباب الرابع:

بَاب فِي الْأَمَلِ وَطُولِهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ الآية [آل عمران:١٨٥]، ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾ [البقرة:٩٦] بِمُبَاعِدِهِ. وَقَوْلِهِ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ [الحجر:٣].

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ارْتَحَلَتْ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً وَارْتَحَلَتْ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ.

نقرأ الآية التي في سورة آل عمران ونتصور مسألة طول الأمل لأن اسم الباب: "بَاب فِي الْأَمَلِ وَطُولِهِ" فسنجد أن آية آل عمران كأنها تصوب آمالنا إلى جهة صحيحة، وتجعل آمالنا دائرة في أمر مهم.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

البخاري بدأ من قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ يريد هذا الشاهد، والآية مطلعها الخبر عن الموت ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ما حالها؟ ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

إذن هذا المفهوم لابدّ أن يقطع طول الأمل في الدنيا ويجعل الأمل يتجه إلى اتجاه آخر، الله عز وجل أخبر أننا في ذاك اليوم ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني أجر أعمالكم يوم القيامة، نهاية الآمال الآن في الآية ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ المعنى أن الدنيا آمالها مهما طالت فهي متروكة وراءك، لكن يبقى الأمل الذي هو ﴿خَيْرٌ أَمَلاً﴾ وتبقى متأملًا به أنك تعمل أعمالًا في الدنيا تسبب لك أن تزحزح عن النار وتدخل الجنة.

فنحن كل يوم نسمع فلان فاز، وفلان فاز، وهذا الفريق فاز، أو أولئك القوم الذين يفعلون كذا وكذا فازوا، فالفوز والنجاح والفلاح هذه من الكلمات المكررة التي يستعملها الناس ويجدون في أنفسهم انشراحًا لها، فلما تعرف حقيقة الدنيا وتسمع إطلاقات الفوز على أشياء في الدنيا وهناك أنت سمعت ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وتسمعهم يتكلمون عن الفوز والنجاح والفلاح في شؤون أنت في نهاية الأمر تجدها "لعب ولهو" تنظر لها في نهاية الأمر على أنها "لعب ولهو" وأن الفوز هذه الكلمة إذا أردنا أن نطلقها إطلاقًا حقيقيًا فهي محصورة في حقيقتها على أنه

١) من زحزح عن النار

٢) وأدخل الجنة

← فقد فاز.

فإذا حصرنا آمالنا على هذا لا يستطيع الشيطان الرجيم أن يغرينا بالدنيا ويعلقنا بها ولا أن نستسلم نحن لنفوسنا ورغباتها وطول أملها لأنه في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عن الإنسان وأنه فيه طول الأمل وفيه حب الدنيا وفيه إرادتها لكن آية آل عمران تعلمنا أن الفوز الحقيقي والنجاح الحقيقي أن تفكّر دائمًا في هذا "أن تزحزح عن النار وتدخل الجنة"، ثم هو بيّن معنى الزحزحة يعني بمباعده، ما هو الفلاح؟ أن تزحزح يعني تباعد عن النار.

التقرير الأول أن كل نفس ذائقة الموت وأن النجاح والفلاح لمن زحزح عن النار ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

ثم وصفت الدنيا وهو الشاهد عندي في باب الأمل ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، معنى ذلك أن الدنيا شبهت بالمتاع، هذا المتاع الذي يدلّس به على من أراد السوم، يعني نزل السوق يسوم الأشياء بكم هذا وبكم هذا فهو مغرور، بمعنى خدعوه، نزل يشتري سألهم بكم فهم دلّسوا عليه فاشترى متاع الدنيا ثم لما يحصل عليه يتبيَّن له فساده وأنه رديء!

ومن أجل أن تتصور ذلك كأنك دخلت مطعمًا وأردت طعامًا وأنت في حالة من الجوع، قلت بكم هذا على أنه شهيّ واشتريته فذهب مالك، وضعت الأكل في الصندوق وأتيت البيت وجدتيه فاسدًا! فحصل لك أمرين معًا: من جهة فقدت مالك ومن جهة أخرى لم تجد المتاع، فهذا الشيطان هو المدلّس وهو الغَرور.

◄ "الغَرور" بالفتح يعني الذي غرك، ونشأ منه "الغُرور" فاغتررت به.

⬅ فبالضم اغتررت به

⬅ وبالفتح هو الذي قام بالفعل.

﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يعني أن الشيطان خدعكم، ثم يأتي بعدها إذا هو خدعكم أنتم يحصل منكم غُرور فتنخدعون.

إذًا ما الذي يخرجنا من هذه الخديعة من متاع الدنيا؟ أن نجعل آمالنا أن نزحزح عن النار وندخل الجنة، نسأل الله من فضله لنا ولوالدينا وللمسلمين اللهم آمين.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ولا يغرك الشيطان برحمة الله عز وجل، فرحمة الله لها أسباب، أقبل بالأسباب إلى ربنا وهو غفور شكور يغفر لك التقصير ويضاعف لك العمل.

انظروا جيدًا الآية ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ هل أعمالنا هي التي ستدخلنا الجنة؟ أعمالنا والاجتهاد فيها هي سبب رحمة الله بنا، والله عز وجل عزيز حكيم لا يساوي بين عبد ترك العمل وعبد بذل واجتهد، لكن العبد لما يبذل ويجتهد لا يظن أنه يستحق الجنة إنما يعرف عن الله أنه سبحانه وتعالى ينظر إلى قلوب العباد واجتهادهم فيرحمهم ويرحم تقصيرهم وضعفهم فيقبل منهم أعمالهم ويغفر لهم تقصيرهم ويضاعف لهم أجورهم، لكنه ينظر إلى عبد قد اجتهد قلبه لا إلى عبد لاهٍ.

بهذا انتهينا من آية آل عمران وتبيَّن لنا أن الأمل الحقيقي الذي نعيش عليه أن نزحزح عن النار وندخل الجنة ونعرف أن هذا هو الفوز وأن أي فوز آخر إنما هو من اللعب واللهو، يعني أي شيء يتصل بالدنيا إنما هو من اللعب واللهو كوننا نظن أننا فائزين، ولذلك تجد الناس يبذلون جهودهم في دنياهم ثم تكون في النهاية متاع الغرور، لما يأتون في وقت الحاجة ليفتحوه يجدون أنه ليس معهم شيء وفي وقت لا ينفع فيه الندم ولا العودة ولا إعادة ما كان، هذه آية سورة آل عمران.

نرى آية سورة البقرة التي استشهد بقوله ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

ماذا تبين لنا؟ هذا فيه وصف اليهود وغيرهم ممن أطماعهم وقلوبهم معلقة بالدنيا وطول الأمل وأنهم يريدون أن يعيشوا ويعيشوا ويعيشوا، فالله عز وجل يقول لهم: لو عمر هذا المعمر ألف سنة ما هو بمزحزحه من العذاب، فهذا لا يباعده عن العذاب، فطول حياته هنا في الدنيا لا تعني أنه في النهاية يزحزح عن العذاب بل من يزحزح عن النار ويدخل الجنة هو من أحسن وقام بالأعمال.

نتوقف اليوم هنا وغدًا إن شاء الله نكمل كلام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه.